د. مصطفى الفقى: (٢)

البحيرة الأمريكية هى معادل البحيرة الرومانية فى عالم اليوم

- الفكر القومى يحتاج إلى مراجعة كاملة.
- الحرية هى أم الإبداع كما الحاجة أم الاختراع.

obeikandi.com

obeikandl.com

د. مصطفى الفقى سفير مصر فى النمسا (وقتها) واحد من أنشط المثقفين المصريين الذين يبعثون قدرا معتبرا من الحرارة الضافية على الساحات الفكرية فى البلد، وهو ـ أيضا ـ من أنصار الفكر الاجتهادى التجديدى، الذين لا يقنعون بإعادة إنتاج المقولات الفكرية والعقلية سابقة التجهيز، وإنما يرى أن مسئولية كل تيار ثقافى وفكرى، هى فى اختراع وابتكار صياغات جديدة تتناغم مع حقائق العصر، ولا تتصادم مع معطياته أو أعرافه السائدة، من دون أن يفقد هذا التيار الثقافى قوامه أو يخون تراثه.

وقد تحدثت إليه على الهاتف بين لندن وفيينا فى بعض شواغل الساحة الثقافية المصرية التى عادة ما يختصنى بالحوار حول قضاياها الحاكمة، واستأذنته فى نشر بنود هذا الحديث فوافق، وهذا نصه:

- **د. مصطفى.. ملاحظتك اللامعة عن جيلك بوصفه جيل الطابق المسحور فى التاريخ السياسى لبلدنا، وملاحظتك الأكثر لمعانا عن اهتمام غالبية المثقفين والمهنيين فى مصر بالإعلان عن الذات بأكثر من اهتمامهم بإنجاز شىء على الأرض لبلدهم ومجتمعهم وأمتهم.. تستحقان وقفة للمناقشة، فأنا لا أنظر إلى جيلك سجين الطابق المسحور، كما لا أنظر لاحتراف عمليات الإعلان عن الذات بوصفها ظواهر معلقة من جذورها أو من شواشيها فى الهواء، وإنما بوصفها نتائج لمقدمات، وانعكاس لضياء نور أو لهيب نار.. بما يدفعنا إلى التساؤل عن مصدر سيادة مثل هذه الظواهر، والمناخ الحقيقى الذى نمت فيه.. وماهية النظام السياسى أو الاجتماعى الذى أنعشها؟**

○ إن الحديث عن الجيل الذى أنتمى إليه باعتباره «جيل الطابق المسحور»، إنما يصدر عن حقيقة صنعها تاريخ مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، فأنا أنتمى إلى جيل بدأ حياته العملية مع نكسة ١٩٦٧ بتداعياتها المعروفة، وهو أمر انعكس بشدة على الحالة النفسية العامة للشباب فى ذلك الوقت، حيث كانت الهزيمة بمثابة صدمة كبرى بعد سنوات طويلة من الحديث عن المد القومى والتفوق العسكرى العربى والتعلق بالبطل الملهم، ثم صحونا فجأة على غير ذلك تماما، وهو الأمر الذى أدى إلى حالة من الإحباط الشديد. وفى ظنى أن تلك السنوات الواقعة بين حربى ١٩٦٧، ١٩٧٣ كانت هى سنوات اليأس والضياع التى أدت إلى خروج عناصر التطرف الدينى والعنف السياسى، وهى أيضا نفسها السنوات التى صادرت على مستقبل جيلى وجعلت «مصعد» الحركة السياسية يتحرك من أسفل إلى أعلى متجاوزا ذلك الطابق المسحور الذى يسكنه جيلى بكل ما يحمله من معاناة وما يشعر به من ألم، فعلى الرغم من الصمود العسكرى وحرب الاستنزاف المجيدة، ثم نصر اكتوبر العظيم إلا أن ارتباط البداية بالهزيمة العسكرية وتطور سنواتها الأولى مع النكسة، كل ذلك واقعا مستمرا يلاحق جيلى بالإحباط وخيبة الأمل، والهجرتين المكانية والزمانية فى معظم الحالات. ولقد شهدنا عبر تلك السنوات كيف يتم الإعلان عن الذات ودفع القيادات دون إعمال لقانون الاختيار الطبيعى الذى يضع كل فرد فى موقعه الذى يتناسب مع كفاءاته الموضوعية وقدراته الحقيقية، ولاشك أن سيادة هذه الظواهر إنما برزت فى ظل مناخ عام عرف التقلبات الشديدة والتوترات المتتالية والانتقال من حالة التحميس الزائد والشحن الدائم إلى حالة الانقسام والانزواء والتشرذم التى عرف جيلنا بعضها.

● (الحوار مع الذات) و (الحوار مع الآخر) ساحتان تحتاجان إلى وقفة لتقييم العناصر المندمجة فى كل منهما، ونوع الأداء السائد فى كل واحدة، واستطلاع واكتشاف ما إذا كانت هناك علاقة صحية وصحيحة بينهما، أم أن كلا منهما أصبح معزولا عن الواقع الفكرى والعملياتى للأخرى؟

obeikandl.com

○ إن الفارق بين (الحوار مع الذات) و (الحوار مع الآخر) هو الفارق بين مفهوم «المنولوج» ومنطق «الديالوج»، ولقد كانت مشكلتنا دائما أننا نعايش أنظمة سياسية تؤمن بالمونولوج السياسى الذى تتحول معه حركة الجماهير إلى انعكاس مباشر لتوجهات القمة فى وصاية أبوية ملزمة، أدت إلى كبت الحركة الطبيعية للمجتمع المدنى وعطلت قوانين التطور الطبيعى فيه. لذلك كان طبيعيا أن نتجه نحو مفهوم الديالوج فى السنوات الأخيرة لا تمشيا مع تيار عالمى كاسح يدعم الديمقراطيات ويحمى حقوق الإنسان ويعلى من سيادة القانون، ولكن أيضا نتيجة الإحساس بأن التقدم قرين الديمقراطية، وأنه إذا كانت الحاجة هى أم الاختراع «فإن الحرية هى أم الإبداع». ولقد تحققت لنا فى السنوات الأخيرة مساحة كبيرة من الحوار بين الفرد والدولة فى محاولة لإحداث التوازن بينهما على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

● لا أظن أن حالة فكرية أو تطور فكرى يمكن أن ينمو أو يتحرك أو يتطور فى المطلق، تحت شعار من طراز (الفكر للفكر). ولا أظن أن (الحالة العربية الفكرية) أو (التيار الفكرى القومى العربى) السائدين يمكن فهم ما يعتريهما من تغيرات أو تفاعلات من دون دراسة علاقتهما بتطورات الصراع/ السلام العربى ـ الإسرائيلى.

كيف فى تقديرك تؤثر التطورات التى تعترى المنطقة الآن فى (حالة) أو (تيار) الفكر العربى بعامة؟

○ لاشك أن الحالة الفكرية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ إنما تعكس طبيعة الحركة الإقليمية والتطور العلمى فى وقت واحد، فالفكر القومى يحتاج إلى مراجعة كاملة وتجديد شامل لإثبات أن الصراع العربى الإسرائيلى ليس أزمة مؤقتة أو مشكلة عابرة، ولكنه نتاج تاريخ طويل ومخاض مواجهة طويلة لن يتمكن فيها العرب من تحقيق إنجاز ما إلا بصحوة العقل وتحكيم الضمير القومى والاتجاه به نحو غاياته القومية الصحيحة، وعلى سبيل المثال: فالعرب منقسمون تجاه طبيعة

التعامل مع الخصم دون أن تتوحد كلمتهم، ودون أن يتفق فكرهم تجاه إستراتيچية المواجهة على المدى الطويل.. فالمشكلة الحقيقية ليست فى الانقسام الفكرى الراهن، ولكنها أيضا فى غياب التصور الصحيح للإستراتيچية البعيدة، أى انعدام الرؤية القومية المقبولة من كل الأطراف.

- **الشفافية والقابلية للاختراق اللتان أصبحتا سمتان رئيسيتان لعالم ما بعد ثورة الاتصال وانفجار المعلومات، والعولمة التى تضم فيما تضم تحت لوائها سيادة معايير التنافسية والتكنولوچيا المتقدمة، والخضوع لضرورات ومقتضيات التجارة الدولية.. كل هذا اقتحم كثيرا مفهوم (السيادة) الذى تحتضنه ـ مازالت ـ فى اعتزاز أثير معظم دول المنطقة العربية. هل تتصور أننا بحاجة ـ اليوم ـ لمزيد من ربط أنفسنا بمفهوم السيادة، أم أننا يجب أن نخترع من الصيغ ما يمكننا من التلامس أو التقاطع مع حقائق العصر الجديد على أرضية مفهومية وفكرية تنتمى إلى ذات العصر؟**

○ ليس من شك فى أن التطورات الضخمة فى طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة والتى صنعت عالما مختلفا لاشك أن تلك التطورات المتلاحقة والتغييرات السريعة قد أدت إلى فهم جديد لمنطوق سيادة الدولة فى ظل تلك التطورات، فلقد أصبح مقبولا فى ظل سيادة قوة عظمى واحدة تسعى لإعادة ترتيب الأوضاع دوليا وإقليميا وفقا لمصالحها، أصبح مقبولا أن يجرى التدخل فى شئون الدول الصغيرة تحت دعاوى حماية حقوق الإنسان أو استعادة الديمقراطية أو حتى الحفاظ على البيئة. . وهى كلها دعاوى حق يراد بها باطل، فالواقع أن هناك محاولات من جانب الولايات المتحدة الأمريكية لاستخدام الأمم المتحدة فى تأديب الأنظمة وتربية الشعوب، فنحن نعيش الآن فيما يمكن تسميته «العصر الأمريكى»، فكما أننا كنا نتحدث عن البحر المتوسط كبحيرة رومانية فى وقت ساد فيه تعبير« PAXA ROMANA »، فإننا يمكن أن نتحدث فى عالم اليوم عن

ما يمكن تسميته «PAXA AMERICANA »، ويكفى أن نتذكر كعرب أن هناك ثلاث دول عربية على الأقل تقع تحت الحصار الاقتصادى والاتصالى فى محاولة لتأكيد المعنى الذى ذهبنا إليه، وهو حق القوة الكبرى فى فرص شروطها على غيرها بشكل غير متكافئ، وفى ظل مفهوم الكيل بمكيالين.. فحتى مسألة حقوق الإنسان أصبحت قضية نسبية للغاية، فنحن ندرك أن حقوق الإنسان الأمريكى تختلف عن حقوق الإنسان الفلبينى أو الهندى، وكذلك فإن حقوق الإنسان الفلسطينى تختلف أيضا عن حقوق الإنسان الإسرائيلى، وهو أمر أدى فى مجمله إلى اهتزاز القيم واضطراب المعايير فى عالم اليوم.

- **كانت لديك الشجاعة كما كانت لديك القدرة على استشفاف واستشراف المستقبل حين جعلت من التجديد (نغمة) أساسية فى سيمفونيتك الفكرية والثقافية، وبغض النظر عما إذا كانت هناك عمليات تجديد تجرى بالفعل الآن فى ساحات الفكر العربى أم لا، وسواء كانت هناك قدرات تجديدية خلاقة للقوى الفاعلة على هذه الساحة أم لا.. فإن السؤال يظل بوضوح وأرجو أن تكون إجابتك على نفس الدرجة من وضوحه: «هل يمكن أن يتحقق التجديد والتواؤم مع التقدم الذى يفرض نفسه على العالم من جانب تيارات فكرية ومفكرين ينتمون إلى بلدان ومجتمعات منخفضة درجة النمو الاقتصادى/ الاجتماعى؟».**

○ لابد أنك تشير إلى الطرح الذى قدمته فى كتابى (تجديد الفكر القومى)، وهو طرح يعكس محاولة مخلصة لخلق رؤية عصرية لمستقبل الأمة التى تنتمى إليها، فنحن نتاج التزاوج بين الجغرافيا والتاريخ، أى بين البعد المكانى والعمق الزمانى، وكلاهما يشير إلى أن الأمة العربية تحتاج إلى محاولة جادة تعلو فوق الحسابات الشخصية والخلافات الذاتية لتحقيق صورة الغد الأفضل التى نتطلع إليها، وقد لا أكون مختلفا معك فى تأكيد أن انتماء تيار فكرى معين لبلد بذاته

ومجتمع بعينه هو أمر لا يمكن إنكاره، كما أن ارتباطه بدرجة النمو الاقتصادى والاجتماعى هو أمر لا مفر منه، فالإنسان هو ابن بيئته، والمفكر وليد ثقافته، ونحن كعرب نحمل تراثا عريقا يمتد لآلاف السنين، وحتى مفهوم العروبة يعنى فى نهاية تلك السبيكة التى نجمت عن تزاوج ثقافات عديدة، وتواصل حضارات مختلفة، ولا يمكن أن نأخذ المفكر خارج السياق العام لوطنه، خصوصا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية لأنه نتاج لهما وإفراز طبيعى عنهما.

- **د. مصطفى.. ما هى فى تقديرك المنطقة التى تختل فيها ـ عادة وكما تعودنا أن نرى ـ حركة المجتمع فى مصر بين الديمقراطية والفوضى، كما تختل فيها حركة الصحافة بين الحرية وانعدام المسئولية الاجتماعية، وتختل فيها حركة المثقفين بين الجماهير والمؤسسات الأجنبية المولة للبحوث السياسية والمانحة للمراكز الفكرية؟**

○ لا يمكن الإشارة إلى منطقة بذاتها لكى نرى أنها هى المسئولة عن ضياع نقط التوازن بين أطراف متناقضة فى المجتمع من خلال حركته، ولكننا نستطيع أن نقول فقط: إن هذه المنطقة مرتبطة بعوامل تاريخية، وقيم موروثة، وتقاليد متراكمة، وأفكار تغلغلت فى وجدان الناس لتشكل خلفيتهم الفكرية، وهويتهم الذاتية. ولكن لا يجب أن نغالى فى الشعور بالتناقض الذى يبدو للوهلة الأولى، إذ إن ما نمر به هو نفسه تقريبا الذى عرفته مجتمعات أخرى أكثر تقدما وأسرع نموا فى عالمنا المعاصر، والشعوب تتعلم من أخطائها، والأمم تتقدم من خلال آلامها.

- **ببساطة كيف ترى الفارق سياسيا وثقافيا بين جيلك والجيل الطالع فى مصر الآن؟**

○ إن الفارق بين جيلى والأجيال الجديد فى مصر أننا كنا نظريين، على حين

هم عمليون أكثر. لقد كنا مثاليين فى الوقت الذى فيه هم واقعيون أكثر. أنا شخصيا أعتقد أن الأجيال الجديدة يجب أن تكون أفضل بالضرورة لأنها أعطيت فرصة أوسع، ولن تسكن «الطابق المسحور» فى التاريخ المصرى المعاصر، كما توفرت لها مصادر سهلة للغاية فيما يتصل بمصادر الثقافة، ومنابع المعرفة، ووسائل التعلم. لذلك يبدو طبيعيا أن الأجيال الجديدة أكثر اطلاعا على ما يجرى فى عالم اليوم بحكم ثورة المعلومات، وتطور وسائل الاتصال على نحو غير مسبوق، فالسموات مفتوحة، والأقمار الصناعية، والقنوات الفضائية جعلت الجميع بالفعل ينتمون إلى كوكب واحد، ولم تعد هناك هوة كبيرة بين الشاب المصرى ونظيره الأمريكى أو الأوروبى أو اليابانى، فهم جميعا يتابعون نفس الشىء وبنفس المستوى، ولكن هذا لا ينفى أن هناك جيوبا للفقر والتخلف تفصل بين النماذج المختلفة. ولا أخفى سعادتى بطبيعة العلاقة بين الأجيال الجديدة والتكنولوجيا الحديثة واستخدام الكمبيوتر والتهيؤ للقرن القادم بالفهم الصحيح لمعطياته والاستعداد بما يحمله فى كافة المجالات، كذلك فإن الجيل الجديد يبدو أكثر فهما لعقلية الآخر وإدراكا لطبيعته، ولقد لاحظنا أن إلمام الأجيال الجديدة باللغات المختلفة واستيعابها لأساليب التقدم المعاصر، كل هذه الأمور تجعلنى أقول وبكل ارتياح: إن الجيل الجديد أفضل من سابقيه فتلك هى طبيعة الحياة وسنة التطور. أما ما برره البعض من أن الأجيال السابقة أفضل من تلك اللاحقة فهى دعاوى لا تستند إلى دليل واضح، وهى مجرد ارتباط بذكريات قديمة وحنين إلى ماض ولى. وقد حذر منها منذ مئات السنين «عبد الله بن المقفع» فى حديثه الشائق عن (فضل الأقدمين).

- **د. مصطفى.. كيف تنظر إلى ما يردده البعض على أن (عروبة مصر) تكون بالخصم من حجمها وبالإنكار لعناصر التراكم السياسى والثقافى المنسوب إليها فى المنطقة، وأن عروبة مصر حتى لو اعترفنا بها جميعا ستواجه محاولات للتحجيم، كما ستواجه رغبة فى التقزيم من عناصر عربية أيضا؟**

○ إن قضية عروبة مصر لا تحتاج إلى اجتهاد كبير للإثبات فهى حقيقة وحياة ومصير، بل إننى أزعم أنه لفرط ما لدينا من مقومات الاندماج السياسى والانصهار السكانى فإننا لا نفعل ذلك، على حين أوروبا الموحدة أو شبه الموحدة قد فعلت ذلك برغم اختلاف اللغات والثقافات فضلا عن تاريخ طويل من الصراعات الدامية، ولعل نموذج العلاقات الفرنسية الألمانية فى القرن الماضى شاهد على ذلك. ونحن نؤمن بأن عروبة مصر هى معطاة تاريخية وحقيقة جغرافية لأن مصر هى الدولة المحورية ومركز الثقل فى هذه المنطقة من العالم وعروبة مصر ليست منحة أو عطاء، ولكنها درس تعلمناه فى أقصى الظروف، وأصعب الأوقات، وقد تكون المشكلة هى أننا فى بعض الأحيان نخلط بين المتغيرات والثوابت، ونتوهم أن استخدام عروبة مصر سياسيا أمر تحكمه أهواء السلطة أو مزاج الحاكم، على حين هى انتماء أصيل لا ينبغى التشكيك فيه أو استخدامه من خلال سياسات قصيرة الأمد وقصيرة النظر فى الوقت ذاته، والدور المصرى طليعى وطبيعى فى الوقت ذاته، فلم تتمكن قوة بديلة من أن تحجب عن مصر مكانتها أو ترث دورها وظلت الريادة لها فى أصعب الظروف وأقصى اللحظات. ويجب ألا ننسى أن التاريخ والجغرافيا كانا شديدى السخاء مع الكنانة منذ الأزل وربما إلى الأبد.

- ١٩٩٧ -

❑ ❑ ❑